لوثيروس وابن تيمية

ما الحكومات وقوانينها المسطورة ولا الملوك والقياصرة وقواهم المأثورة ولا الفاتحون وايامهم المشهورة ولا المدارس والمجامع وآثارها المشكورة — ما كل هذا هو الذي كان العامل على ارتقاء الغرب والبالغ به من ذرى الحضارة الى هذا الحدّ وانما هو نور من العلم وفيض من الذكاء انتجا تلك السعادة وولدا هذه الخوارق التي ظهرت الى اليوم وما هي الاّ جرثومة لما سيظهر في المستقبل

فلقد عدّ المصلحون للعالم في القرن الماضي مثلاً بعض رجال تعبوا لراحة البشر مثل ستفنسن الانكليزي مخترع الآلات البخارية واميير الفرنساوي مكتشف السلك الكهربائي وفارادسيه وپاستور وداڤي واديسون وبرتلو واضرابهم ممن بذلوا الارض غير الارض وخدموا العمران بما لم يخطر في بال انسان

وأنّى لنابوليون وغاراته وموتكه وكرّاته وولنتون ونصراته ونلسون وهجماته ووشنطون وهمته وغاريبالدي وقيادته وبسمرك وسياسته وروشفور وحماسته ان يبلغوا في التفضل على العالم مبلغ عالم طبيعي او رياضي او اجتماعي ممن استنبطوا من عالم الحيوان والنبات والجماد فائدة تُذكر لهم بالحمدة على المدى. ولكنّ من ربّى الارواح وهيأ الملكات والكفاءات ليس في فضله دون مَنْ افاد المادّيات لما عُلم من انهُ قلما يعمل عملاً نافعاً في كِبَرهِ من لم ينشأ على ادب النفس من صغرهِ

اليك حال مَنْ ذكرتُ وعملهم بالنسبة لذاك المصلح "لوثيروس" الالماني الذي حرّر العقول من رقها وخلص النفوس من شوائب الاوهام في صدر القرن السادس عشر فاعدّها للعمل بالنافع وقد كانت معتقداتها تحول بينها وبينهُ . الا ترى انهُ أُوذي قبلهُ كثير من علماء الطبيعة والاجتماع فاتُّهموا بامانتهم وضُربوا على ايديهم وافواههم . وللاعتقاد تأثير كبير في النفوس لا يصلح المرء بعدهُ شيئاً اذا لم يُبادَر بالإصلاح فهو بمثابة المؤثّر وعمل الانسان أثرهُ بل هو العين وكل عمل الانسان من بعض آثارهِ "واذا صَحّت العين صلحت سواقيها"

دعا لوثيروس الى حذف الزيادات من النصرانية ولم يكن اول من قام بمثل هذه الدعوة فقد سبقهُ أناس من احبار الكنيسة كولدوس في القرن الثاني عشر ووكليف في القرن الرابع عشر ويوحناهوس في القرن الخامس عشر فباؤوا بالخسران ولكن نفساً كبيرة بين جنبي لوثيروس حملتهُ على النهوض بما لم يتيسّر لغيرهِ من قبلهِ . والحوادث العظيمة لا تظهر في العادة الاّ بعد انضاجها وتهيئة اسبابها

فاستعمل بادئ بدء اسلوب حكيم في مؤلفاتهِ وجرى فيها على هيئة استفهام وتحكيم وتشكيك

ليستميل اليهِ قلوب العلماء فاستجاش لهُ منهم انصارًا اكفاء ساعدوهُ على نشر التآليف والقاء الخطب والمواعظ مثل روشلين وهوتان وهما الرجلان اللذان احييا الآداب في المانيا فنالت تآليفهما منزلة سامية من النفوس . وكان لوثيروس دونهما في طلاوة الانشاء مع انهُ عني بدراسة آداب لغتهِ واحكم اللغات العبرية واليونانية واللاتينية

اما خصومهُ فظنوا ان هذه الجذوة منبعثة من تعلُّم الادب لان اهل المانيا اذ ذاك شغفوا بمطالعة كتب اليونان والرومان وتوفروا على دراسة العلوم والفنون والآداب فسمت اذواقهم وحسنت اخلاقهم وطفقوا يعملون ويفكرون ولذا تصدوا لصدّ الناس عن هذا السبيل فذهبوا الى ان الاولى لحفظ سيادتهم ان يحظروا تعلم الادب. فكان شأنهم في عملهم هذا شأن بعض الفقهاء المتأخرين في منعهم الاخذ من كل علم يجهلونهُ لانهُ غير موصل الى علم الدين ومن جهل شيئًا عاداهُ

وساعد لوثيروس على الاسراع في بث الدعوة اختراع صناعة الطباعة قبل قيامهِ بخمسين سنة فاخذت تنتشر مؤلفاتهِ ومؤلفات اصحابهِ بين طبقات القوم جمعاء . وصادف ان كانت بلاد المانيا آمنة من الحروب على حين كانت تتلظى نارها في سائر الممالك المجاورة خصوصًا بين شارلكان ملك اسبانيا وفرنسيس الاول ملك فرنسا. وقد ارعب الاول ممالك اوربا على عهدهِ كما اذعرها نابوليون بونابرت في اوائل القرن التاسع عشر

ولم تكن بيعة رومية لتهتم بقيام لوثيروس لاول وهلة لما لها من السطوة على افكار الخاصة والعامة فسرت دعوتهُ على غرة منها سريان النار في الهشيم

ولم يتظاهر بالخروج على الكنيسة الرومانية الاَّ بعد ان اخذت دعوتهُ مأخذًا من النفوس وما فتئ يُسرُّ حَسْوًا في ارتقاء حتى اشتدَّ ساعدهُ فخرق جهارًا في وتمبورغ مرسوم البابا ليون العاشر . فعندها همَّ بقتلهِ ديوان رومية بمالئهُ هنري الثامن ملك انكلترا وبعض ملوك اوربا ولم ينالوهُ بأذى لان منتخب سكسونيا كان يحبهُ ويعينهُ . ولما رأى هذا تربصهم الدوائر بخصيصهِ ابقاهُ في قصر بقلعة ورتمبرغ نحو تسعة اشهر ضيفًا كريم الوفادة توفر فيها المترجَم على التأليف وتفرغ لبث الدعوة في القاصية والدانية

انفرجت مسافة الخُلف بين المؤرخين بشأن لوثيروس فافرط فريق في القدح فيهِ وفرّط آخر في مدحهِ والحقيقة وسط بين القولين الاَّ انهُ كان على جانب من التربية الصحيحة تكشَّف لاول امرهِ وزهد في زخارف الدنيا واعتزل في احد الاديرة فدرس في غضون ذلك الفلسفة التي كانت معروفة في اوربا وتبحر في علم اللاهوت فنال منهما حظًّا وافرًا ثم عدل عنهما وداَب يدرس

متن الانجيل . ولما عرف الامير فريدريك منتخب سكسونيا ما كان عليهِ من العلم اقامهُ مدرساً للفلسفة واللاهوت في مدرستهِ بمدينة ويتنبرغ سنة ١٥٢٠ فتنع بما كانت تدرُّهُ عليهِ المدرسة من المشاهرات اليسيرة وتجافت نفسهُ عن تناول ما لا تبيحهُ لانفسها كبار الرجال من الاموال

قال جول سيمون في كتابهِ حرية الضمير لم يبتدع لوثيروس بدعة بل انشأ ديانة وخرق حدود السلطة الزمنية كما خرق السلطة الروحية واستمال الى حزبهِ الامراء وبذل البذول لتأليف قلوبهم على دعوتهِ . فما كان غير قليل حتى رأى نماء محازبيهِ ومشايعيهِ بما جاوز ما كان يأملهُ بحيث ساغ لهُ ان يناجي نفسهُ وهو يموت انهُ غلب باباوات ثلاثة اعني بهم ليون العاشر والامبراطور شارلكان وملك فرنسا فرنسيس الاول اه

ولقد عيب عليهِ اعجابهُ بما كان يتم على يديهِ حيناً بعد آخر من تكثير سواد المهتدين الى مذهبهِ ولكنهُ لم يخرج في هذا عن مألوف عادة البشر . وقليل مَنْ لا يفاخرون بملء اشداقهم اذا عملوا ابسط الاعمال . وكذلك أُخذ عليهِ تحاملهُ على خصومهِ ووصفهم في مصنفاتهِ بما لا تبيحهُ آداب هذا العصر فكان في مناظراتهِ يزري عليهم خُطتهم ويقابلهم بمثل شتائمهم ويُوقع الغميزة فيهم . ويُعتذر عنهُ بان ذلك كان جارياً مجرى العادة في تلك الاعصر ولم تكن الآداب والاخلاق قد تحسنت . وكان يخلط الهزل بالجد في حِجاج مَنْ يريد خصمهم الى حزبهِ . وهكذا ظلَّ بين بث دعوة وكتابة تأليف وردّ على مخالف حتى اخترمتهُ المنية في الثالثة والستين من عمرهِ وقد خلَّف الوفاً ممن أشربت قلوبهم دعوتهُ وترك اولاداً من زوجة تأهل بها في الكهولة

هذا لوثيروس وهذه حياتهُ واعمالهُ ولكم جاء مثلهُ من قبل ومن بعد فلم تلاحظهم عيون العناية فقضوا وما قضوا من لُباناتهم إما لضعف نفوسهم ونقص استعدادهم او خيفة من المناصبين الجاهلين وفاقهُ الى الناصرين العالمين كما قضى في هذا الشرق رجال كانوا يقدرون على القيام بمثل ما قام بهِ لوثيروس فاختاروا السلامة ولم تبح صدورهم بما خالجها من ضرورة الاصلاح او اقدموا فعُذِّبوا لتصريحهم بما يخالف الاهواء وتصديهم الى العمل بما تدفعهم اليهِ سلامة وجدان وعقول نيرة لا تصبر الاَّ على اضاءة مَنْ حولها

يرى الناظر في تاريخ العرب عدداً كبيراً من هذه العصابة وأُناساً لم يتعرض لهم لعدم اشتهارهم وما رأسهم ان حققت الذي قام بالدعوة قولاً وفعلاً ألاَّ شيخ الاسلام "ابن تيمية" فهو كلوثيروس في افكارهِ ودعوتهِ . دعا هذا الى حذف ما في النصرانية من الفضول وجاهر ذاك بتعرية الاسلام مما أُلصق بهِ من البدع فكانا متشابهين في علمهما ودعوتهما وتحنهما الاَّ ان ابن تيمية اعلم والمحن التي لقيها اشدّ . وكأن نقدّم ميلاد ابن تيمية كان اشارة الى انهُ السابق

لداعية النصرانية الاَّ في سريان الدعوة وكثرة الخصوم . ومن عادة الغرب ان يقبل اهلهُ على ما ينفع بدلالتهم عليهِ ومن طبع الشرق ان ينبذ سكانهُ كل ما يفيدهم من التجديد مما هو ولا مراء من علل تقدُّم الاول على الثاني

ولد ابن تيمية في حرّان سنة ٦٦١ هـ وقدم بهِ والدهُ عند استيلاء التتار على البلاد الى دمشق وهو في السادسة من عمرهِ فاخذ الفقهَ والاصول والعربية عن مشايخ عصرهِ وعُني بالكلام والحديث وسمع الكتب الستة والمسند مرّات حتى قيل إن كل حديث لا يحفظهُ ابن تيمية ليس بحديث . واقبل على تفسير القرآن فكان فيهِ الحجة الثبت واحكم اصول الفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغيرها من العلوم ودرس تاريخ الاسلام حتى صار يسلسل ما توالى عليهِ وعلى اهلهِ ساعة ساعة . ثم نظر في الفلسفة الالهية وردَّ على رؤسائها

كان خارقة في الجمع بين توقد الخاطر وشدة العارضة فما حفظ شيئًا ونسيهُ . وقد أَلَّف في التفسير والفقهِ والاصول والحديث والكلام والردود على الفرَق الضالة والمبتدعة . وكتب فتاوي عديدة بلغت على روايةٍ اربعة آلاف كراس اما مؤلفاتهُ فثلثمائة وبالغ احد مترجميهِ فقال وما ابعد ان تصانيفهُ الى الآن تبلغ خمسمائة مجلد . وكلها مما لم يسبقهُ اليها احد . وكان لجودة قريحتهِ وسرعة براعتهِ يكتب الرسالة في ليلة ويمليها مسوَّدةً مبيَّضة كأنها كانت مسطورة امام ناظريهِ لا تحتاج الاَّ الى النقل . وكان درسهُ مجمع اشعة العلم النافع يقرأُ الإخلاص في سطور اقوالهِ وهذا حسدهُ معاصروهُ ممن تسموا بالعلماء لان علمهم كان تمويهيًّا يشبه الخرز وعلمهُ كان يقينيًّا يشبه الدرّ . قال ابن الزملكاني كان الامام اذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع انهُ لا يعرف غير ذلك الفن وحكم ان احدًا لا يعرف مثلهُ وكان الفقهاء من سائر الطوائف اذا جلسوا معهُ استفادوا في سائر مذاهبهم ما لم يكونوا عرفوهُ قبل ذلك ولا يُعرف انهُ ناظر احدًا فانقطع معهُ ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع او غيرها الاَّ فاق فيهِ اقرانهُ . ولذا شغف بهِ العقلاء في عصرهِ فهدى كثيرين من اهل الملل والنحل ولما قام يدعو الناس الى ترك التوسل بالاموات والاستشفاع بالصالحين والشهداء والاولياء وعدم الإسراج على قبورهم وانكر الواسطة بين الخالق والخلائق لان الله يجيب دعوة الداعي اذا دعاهُ دون وسيلة وليّ او نبيّ وانكر على الفلاسفة بعض آرائهم وتكلم في الصوفية ومذهبهم واراد إرجاع الدين الاسلامي الى ما كان عليهِ زمن الرسول والصحابة عادوهُ وآذوهُ ولم يتوجهْ لهم عليهِ مايشين فلفقوا دسيسة وزعموا انهُ ربما يدعي الامارة فوجد اعداؤهُ السبيل اليهِ مع ان اولاد الكتاتيب لا تصدق ان ابن تيمية يتطاول الى الامارة ولا عصبية لهُ

فاخذ يلقى من الاهوال ما تشيب لهُ نواصي الاطفال ولا يصبر عليهِ ابطال الرجال . وقد قام بنفسهِ في نوبة غازان التتري سنة ٦٩٩ واجتمع بنائبهِ حلوشاه وبتولاي وجرأ على المغول ونصحهم وبكتهم واستصرخ اركان الدولة لحرب التتار لما انقضوا على الشام انقضاض الصواعق ووقف المؤرخ الحسن سنة ٧٠٢ في وقعة شقحب المشهورة واجتمع بالخليفة والسلطان وحرضهما على الجهاد . وذهب سنة اربع لقتال الكسروانيين في جبل لبنان . وناظر المخالفين في المجالس التي عقدت بحضرة نائب السلطنة الافرم فظهر عليهم بالحجة فرجعوا الى قولهِ طائعين . ثم ذهب الى مصر وعُقد لهُ المجلس بحضور القضاة واكابر الدولة فحُبس في جب يوسف بقلعة الجبل ومعهُ اخواهُ سنة ونصفًا ثم خرج بعد ذلك فعُقد لهُ مجلس سنة سبع لكلامهِ في الاتحادية ثم أُمر بتسفيرهِ الى الشام على البريد وأُمر بردهِ من مرحلة وسجن بحبس القضاة سنة ونصفًا ايضًا

وبعد ذلك توجه الى الاسكندرية وجُعل في برج اقام فيهِ ثمانية اشهر ثم توجه الى دمشق. ولما تكلم في مسألة الحلف بالطلاق وانهُ لا يتثلث بالقول ورد كتاب السلطان بالمنع من الفتوى بها فعاد هو الى الافتاء بها بعد ان كتم افكارهُ وقال لا يسعني كتمان العلم وبقي كذلك الى ان حبس بقلعة دمشق خمسة اشهر وثمانية عشر يومًا ثم ظفر لهُ اعداؤهُ بجواب يتعلق بمسئلة شد الرحال الى قبور الانبياء والصالحين كان قد اجاب بهِ من نحو عشرين سنة فشنعوا عليهِ فورد مرسوم السلطان سنة ٧٢٦ بجعلهِ في القلعة

هذا وهو لم يفتر عن العبادة والتلاوة والتصنيف والرد على المبتدعة وكتب على التفسير جملة صالحة تشتمل على نفائس اوضح فيها مواضيع كثيرة التبست على خلق من المفسرين وكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة . ولما انتشر ما كتبهُ في البلاد مُنع من الكتابة والمطالعة واخرجوا ما كان عندهُ من كتب ودواة وقلم وورق فاخذ يكتب على الحيطان بالفحم وقد شق عليهِ ذلك فقال ان نزع كتبهِ منهُ كان عليهِ من اعظم النقم . وبقي على ذلك اشهرًا حتى وافاهُ اليقين سنة ٧٢٨ فقامت دمشق لموتهِ وقعدت وهرع الناس يمشون في جنازتهِ فقدر من شيعوهُ من الرجال والنساء بمائتي الف نسمة يبكون منار الاسلام في زهدهِ وسخائهِ وشجاعتهِ وعلمهِ وعقلهِ وامرهِ بالمعروف ونهيهِ عن المنكر واخلاصهِ في السر والعلن . ولم يخل مشهدهُ من بعض بدع وشنيعة كان ابن تيمية ينهى منها وينفر النفوس عنها كضرب الصدور وشق الجيوب والقاء الناس انفسهم او عمائمهم على نعشهِ للتبرك بهِ. وشرب بعضهم ما فضل من ماء غسلهِ. قيل ان الطاقية التي كانت على رأسهِ دُفع فيها نحو خمسمائة درهم وقيل ان الخيط الذي كان فيهِ الزئبق ويعلقهُ في عنقهِ طردًا للقمل سيم بمائة وخمسين درهمًا

مات الامام ولم يتزوج وقبرهُ باقٍ الى اليوم وحيدًا في مقابر الصوفية غربيّ دمشق على كثرة من دُفن فيها من العلماء والامراء ممن دثرت قبورهم على شدة حرصهم على تخليد اسمائهم فكأن لسان حالهِ ينادي بافصح مقال اليكم يامن تمشون على قدمي في الدعوة الى الاصلاح فتلاقون الشدائد وتُسامون الخسف فالحق يعلو ولا يُعلى عليهِ والجواهر تبقى ولو صُبغت بالسواد حينًا من الدهر والاعراض تزول ولو مُوّهت قرونًا واجيالاً

هذا هو الرجل الآسياوي العظيم الذي تقدم المصلح الاوربي بقرن واحد . وربما يتبادر الى ذهن المطالع ان لوثيروس احسن السياسة مع قومهِ فلم يصلوا اليهِ بمكروهٍ وانتشرت دعوتهُ وذاك لم يحسنها فاضطهد وأُوذي . ومن يتروّ في الامر يجد ان ابن تيمية فعل الواجب ان يفعل فحال دون الوصول الى الغرض تلك العوارض المارة آنفًا ولو سكت عمّا لا يحسن الاضطلاع بهِ غيرُ من كان يقوم مقامهُ . وما كل عشرة قرون تُنتج الامة عقلاً كعقلهِ وعلمًا كعلمهِ وشجاعة كشجاعتهِ وصفات كصفاتهِ ولكن الاقدار ما برحت تناصب اهل الاقدار

واعلم ان لوثيروس لم يُوفق بان ظهرت على يدهِ اعظم حوادث القرون الاخيرة (اذ قسم باصلاحهِ اوربا الى شطرين متباينين كاثوليكي وبرتستانتي حمي بينهما وطيس الفتن منذ اوائل القرن السادس عشر الى منتصف القرن السابع عشر) بقوة خارقة للعادة فيهِ او ذكاء وعلم ما اوتيهما بشر مثلهُ ولكنهُ كان على التحقيق نسخة صحيحة من عصرهِ وجد مجالاً فسيحًا فجال وآذانًا واعية فخطب ونفوسًا متشوقة فكتب واحسن منشط وجدهُ على نيل بغيتهِ ذاك الملك العظيم الذي حماهُ من وصول الاذى اليهِ

امّا ابن تيمية فكان الشعب عارفًا قدرهُ فاستاء من ذلك معاصروهُ فسعوا فيهِ وشنعوا عليهِ . ومما يعجب لهُ ان قلوب الملوك والامراء في ايامهِ جُبلت على حبهِ ولكنهم لم ينفعوهُ بسلطانهم لما وشى بهِ اعداؤهُ ولو خدمت الظروف ابن تيمية كما خدمت لوثيروس لما انفضّ القوم من حولهِ وتركوهُ يتقاذفهُ تيار الاهوال من كل مكان

ومن العجيب في المشرق ان اهلهُ تبع لكبرائهم مع قربهم من الخير وسلاسة قيادهم . وامراء الغرب وكبراؤهم تبع لاهلهِ لا ينطقون الاّ بصوت شعوبهم . ولذا رأيت لما انبثق نور التمدن في اوربا بعد لوثيروس استفادت اوربا بهذا الانقسام لما عقبهُ من المنافسة فلم تعمل مملكة عملاً نافعًا الاّ وقلدتها جارتها ان لم يكن برضى سادتها فبرغمهم حتى تشاكلت هاتيك الممالك بهيئة حكوماتها وادارتها ومعارفها وعمرانها الاّ قليلاً . ولا غرو فان السبب الخفي في نجاح لوثيروس اكثر من ابن تيمية انما كان بفضل الشدة والاعنات . ذلك ان رؤساء الدين كان لهم في

اوربا سلطة روحية عظيمة فلما اشتدت وطأتها عافتها النفوس وسعت الى الخلاص منها اما المسلمون فليس لرؤساء الدين فيهم حكم نافذ بلغ ذلك الحد عند المسيحيين وما حكمهم ان تبصَّرت الاَّ ادبيٌّ وان استسلم بعض الشعب للعلماء فلا يكون الاَّ من باب المجاملة لا الفرض الواجب ولذلك فلما فكرت النفوس في الاصلاح على ان المذهب الاصلاحي الذي قام بهِ ابن تيمية لم يعدم انصارًا واشياعًا وما فتئ من أُشربوا دعوتهُ ينقلونها من صدر الى صدر على توالي الايام الى زمن محمد بن عبد الوهاب الذي جاهر بالدعوة في غربي جزيرة العرب فانتشرت مساعيهِ ثم انتقلت الى الهند الغربية ولم تزل آخذة في النمو وإن كان دون نمو الدعوة البروتستانتية والله اعلم.

باحث دمشقي

نبأ من اليابان

الصناعة والشركات الصناعية

لما اشرنا الى الصناعة اليابانية في الجزء الماضي من المقتطف قسمناها الى قسمين الصناعة اليدية التي يُعتمد فيها على يد الصانع والصناعة الآلية التي يعتمد فيها على البخار ونحو من القوى الطبيعية. وقلنا ان الصناعة الاولى قديمة في بلاد يابان وقد بلغت فيها حد الاتقان قبل هذه النهضة الجديدة واما الصناعة الثانية فحديثة ووعدنا ببسط الكلام عليها في هذا الجزء وانجازًا لذلك نقول

لا يخفى ان الصناعة الآلية لا تقوم الاَّ بالشركات لما تقتضيهِ من النفقات الطائلة التي قلما يستطيعها او يُقدِم عليها رجل واحد. وقد ادرك اليابانيون ذلك وعملوا على مقتضاهُ. وأُدخلت الشركات الصناعية الى بلاد يابان سنة ١٨٨٨ اي منذ اربع عشرة سنة لا غير فلم تمضِ ست سنوات حتى صار فيها ٢٩٦٧ شركة صناعية رأس مالها المدفوع ٣٥ مليون جنيه. وفي ذلك الدليل القاطع على ان البلاد حيَّة مستعدة للنمو السريع وكان هذا قبلما نشبت الحرب بينها وبين الصين وقبلما اثبتت قوتها بالامتحان

والظاهر ان تلك الحرب لم توقف سير التقدُّم مع ما استنزفتهُ من اموال البلاد لانهُ لم تأتِ سنة ١٨٩٩ حتى صار عدد الشركات الصناعية ٧٨٢٩ وصار رأس مالها المدفوع ٧٠ مليون جنيه. ولو جرى القطر المصري هذا المجرى منذ عشر سنوات لوجب ان يكون فيهِ الآن شركات صناعية رأس مالها عشرون مليون جنيه. ولو كان محمد علي باشا قد حرض اهالي القطر المصري على انشاء المعامل الصناعية بدلاً من ان ينشئها هو وتكون متوقفة عليهِ تقوم بقيامهِ وتسقط